bilimname, XXI, 2011/2, 117-127

نظرية الفن عند الفارابي

أحمد أنيس الحسون
a-anees@hotmail.com

Özet

Farabi, felsefesinde bir takım yeni felsefi kavramlara dayanması dolayısıyla yaşadığı çağın en önemli filozofu olarak kabul edilir. Hatta onun, sanat dallarının bütününü ele almış olduğu estetik nazariyesi içinde kendine has bir sanat nazariyesine sahip olduğunu söyleyebiliriz. Farabi, felsefesi ve derinlikli düşünmesinin mahiyeti ile araştırmacıların ilgi odağı olan düşünürlerden birisidir. Burada biz, onun sanat alanındaki estetik nazariyesinin bir yönü üzerinde durmak istiyoruz.

Anahtar kelimeler: Farabi, Sanat, Estetik, Şiir, Müzik.

Abstract

Farabi's philosophy is based on some of the new philosophical concept. This is why he is regarded as one of the most important philosopher of his age. Even we can say that he has its own theory of art in the theory of aesthetic. Farabi is one of the philosophers who has been the focus of attention of researchers with his philosophy and the nature of in-depth thinking. Here we would like to focus on one aspect of his art in the theory of aesthetics.

Keywords: Al-Farabi, Art, Aesthetic, Poetry, Music.

الملخص:

يُعتبر الفارابي من أهم فلاسفة عصره، حيث استند في فلسفته إلى مفاهيم فلسفية جديدة، ونستطيع أن نقول : إن له نظريته الخاصة في الفن ، حيث تناول في نظريته الجمالية مجمل ضروب الفن، وقد توقف كثيراً عند الكمال الكوني ورآه منسجماً مترابطاً، ويُعتبر الفارابي من المفكرين الذين شغلوا الباحثين في فلسفته وماهية تفكيره العميق ، وقد أردنا هنا أن نقف على جانب من نظريته الجمالية في الفن ، سنبتدأ بترجمة الفارابي للتعريف بهذا الفيلسوف الكبير، ثم تلخيص نظريته الجمالية من خلال طرح أهم النقاط فيها، وإيجاز القول في مفهوم " الجليل " من خلال رؤيته الفلسفية ، وتلخيص تذوقه الجمالي وكل ذلك تمهيداً موجزاً لنبدأ بعدها في طرح نظريته الجمالية في الفن ، فقد تناول في نظريته معظم ضروب الفن ، إلا أننا اخترنا الوقوف عند الشعر والموسيقا فقط ، حيث تطرقنا في هذين القسمين لتحليل رؤية ونظرية الفارابي فيهما، ونشير أننا حاولنا الإيجاز قدر الإمكان، وحرصنا على التوغل في أهم مرتكزات فلسفة الفارابي الفنية ، والله ولي التوفيق.

الكلمات الدالة: الفارابي، الفن، الجمال، الشعر، الموسيقا.

الفارابي (260-339هـ -874-950 م).[1]

محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ , أبو نصر الفارابي , ويعرف بالمعلم الثاني : أكبر فلاسفة المسلمين، تركي الأصل , مستعرب , ولد في فاراب (على نهر جيحون) وانتقل إلى بغداد نشأ فيها وألف أكثر كتبه ورحل إلى مصر والشام , اتصل بسيف الدولة الحمداني في حلب , توفي في دمشق , وكان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره — يقال إن آلة القانون من وضعه — عرف بالمعلم الثاني لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول) و يميل إلى الانفراد بنفسه , له نحو مئة كتاب , منها (الفصوص – إحصاء العلوم — آراء أهل المدينة الفاضلة — إحصاء الإيقاعات — الموسيقى الكبير ...) وتكمن أهمية الفارابي في النظرية الجمالية في الفكر الفلسفي الإسلامي ,في أنه أول من تناول مفهوم الجمال بمعناه الفلسفي (الاستيطقي)، حلل فكرة الجمال ضمن إطار فلسفي، وهو في ذلك ينطلق من نظرته الإسلامية الصوفية في تمثله لنواحي الجمال وكيفية التعبير عنه, ويعد أول من أعطى تعريفاً فلسفياً شاملاً لمفهوم الجمال متأثراً بالفلسفة الجمالية اليونانية, وخاصة أفلاطون وأرسطو — وآراؤه الجمالية متناثرة في مؤلفاته، ولخص كتاب (فن الشعر) لأرسطو ، وأضاف للفلسفة درجة أخرى غير التي أوصلها إليها الكندي , فجمع ما أثر من الفلسفة قبله وهذبها وأصلحها , وعنى بالمنطق عناية كبيرة وبما بعد الطبيعة , فطبع الفلسفة بطابع آخر هو النظر في الكليات وفي هذا الوجود غير حافل كثيراً في الجزئيات [2]

- نظرية الفارابي الجمالية

لنبدأ من قوله : " الجمال والبهاء والزينة في كل موجود هو أن يوجد وجوده الأفضل ويحصل له كماله الأخير " [3]

اتخذ الفارابي نظرية فلسفية خاصة, واستند إلى نظرية الفيض بشكل جديد حيث طرحت نظريته شكلاً جديداً لتلك النظرية، وانبنى فهمه للوجود بأكمله من تلك النظرية , حيث وظفها بإبداع تجلى في طرحه المعرفي, يصف الموجود الأول بأنه (السبب الأول لوجود سائر الموجودات) وهو واجب الوجود غير معلولاً لغيره , بل هو علة كل موجود , أزلي دائم الوجود في جوهره (واجب الوجود) وهو ليس بمادة , وخلوه من المادة يعني بالضرورة خلّوه من الصورة , فالصورة عند الفارابي مرتبطة بالمادة – هذا من جهة ومن جهة أخرى لو كان مادة , هذا يعني أن له سبباً في وجوده وهو التركيب, وهذا محال, العياذ بالله , فهو واجب الوجود الذي لا سبب في وجوده فهو بريء– إذاً – من جميع أنحاء النقص ولا يعتريه العدم , وبهذا فإن واجب الوجود يتصف بأنه الأول والواحد والكامل التام الأزلي من كل الوجوه , ويرى الفارابي أن فيضان الموجودات من وجود (واجب الوجود) هو نتيجة طبيعة وضرورية من نتائج الكمال الإلهي, مع التأكيد على عدم اشتراطه بهذا الفيض أو بتلك الموجودات، فواجب الوجود يفيض فينجم عنه ممكن الوجود (سائر الموجودات) وسيرورة الفيض هذه تكون من الأعلى إلى الأدنى .[4] لقد أعطى الفارابي صفة الجمال التام للموجود الأول وهو الله سبحانه وتعالى , لذا فقد وضع مقياساً ظاهرياً للجمال , يعتمد على مدى تحقيق الموجود أو المدرك وجوده الأفضل, وأن يتحقق كمالُه الأخير, وفهم الفارابي لنظرية الفيض يختلف عن فهم أفلاطون الذي اتخذ موقفاً أخلاقياً من العالم المحسوس, على حين أن الفارابي خالفه في ذلك, وتميز بطرحه لفكرة التطور العقلي والجرمي والمادي والأرضي , فالكون لم ينشأ دفعة واحدة بل حدثت عدة نقلات نوعية حتى تمّ نشوء الكون .

" إن البنية العامة لمنظومة الفارابي الفلسفية تؤكد أن ثمة قطبين أساسيين في هذا الوجود الواجب والممكن , وهما (الأول – الإنسان) ,. الأول هو قطب الوجود العقلي الثابت فيما فوق القمر, والإنسان هو قطب الوجود المادي المتغير فيما تحت القمر , أما الموجودات العقلية المفارقة فليست سوى وسائط لاتصال القطبين فيما بينهما , وبذلك نفهم أهمية وجود المدينة الفاضلة بالنسبة إلى الفارابي " .[5] فهذه المدينة هي الوحيدة التي تليق بالقطب الأرضي(الإنسان), وتتحقق هذه المدينة بتكامل الوجود الاجتماعي , بحيث يصب فيه كل تصرف سواء أكان اجتماعياً أو فردياً، فلقد سعى إلى جعل هذا المجتمع فاضلاً وكاملاً عندما رأى فساد المجتمع المحيط فيه, فهو يدين المجتمع الفاسد فردياً وسياسياً واجتماعياً, فهذا يتناقض مع السماء، ولايمكن أن يكون فيضاً وامتداداً للمجتمع العلوي السماوي المتكامل , فنرى الفارابي في هذه الرؤية الجمالية يركز على النموذج المثالي (الإنسان) الذي ينبغي أن يقود مجتمع الأرض, كما يقود الأول مجتمع السماء بموجوداته العقلية والجرمية , فهو يؤسس مدينته الفاضلة بالاتكاء على نظرية الفيض، كان يتكيء على منهج عقلي – ميتافيزيقي في فهم الذات الإلهية والكون , وفي اتكائه عليها لم يكن مترجماً , بل أضاف إلى هذه النظرية وحوّرها بما ينسجم مع منطقه العقلي وموقفه الأيديولوجي , وهذا ما كان جلياً في مدينته الفاضلة , والعضو الرئيس والنبي والعناية الإلهية, كل هذا يجعل من الفارابي متميزاً , وفيلسوف العقل المدافع عن الإنسان في الوجود الفاضل , لقد بنى نظريته الجديدة ليصل إلى المحيط الأرضي ليقول بهذا الخلق الرائع لهذا الكون, وأننا نحتاج للقيام بالدور الإنساني الكامل الممتد أو الذي هو امتداد للعامل

الأول, فلم يكن الفارابي منتمياً إلى عالم المثل العلوي مبتعداً عن الإنسان وعالمه الأرضي , بل دافع عن الإنسان في هذا الوجود الكامل .[6]

إن الجمال الكوني عند الفارابي منسجم مترابط, فالسبب الأول – يصفه – بالوحدة تبعاً لمنهجه الديني الإسلامي , وبذلك يساير فلاسفة اليونان بقولهم في الوحدة المفسرة للكثرة , حيث إن هذه الوحدة من أهم أركان الجمال , إذاً كانت من الناحية الوجودية أو الفنية .

وهذا المقياس للجمال طبقه الفارابي على الفن, فالفن الكامل مترابط الأجزاء.حينما تقصد إحدى الغايات الثلاث :وهي لذة المسموع , والمعونة على تغير الانفعالات, ثم تخيل المعاني في الأقاويل, وأشدها طبيعة هي التي ينال بها تلك المقصودات،وغير الطبيعة لا يبلغ بها واحداً من تلك الموجودات الطبيعية. [7]

وتستند نظرة الفارابي للأشياء الجميلة بربطها بموقف التفكير العقلي،فنلحظ تقديره للقيمة الجمالية من خلال هذا الاتجاه العقلي, وتظهر غائية الفارابي في نظرته إلى الجمال بوصفه يهدف إلى غاية أخلاقية عليا, منطلقاً من موقفه الديني.

ورد عمل الإنسان إلتحصيل الجميل والنافع إذ ربط بين الجميل والنافع , وهذا الموقف يشابه موقف سقراط , لقد سعى الفارابي إلى تسخير كل صور الجمال والفن في خدمة الأخلاق , لذلك ربط بين الجمال والخير والفضيلة , فقد عرف الخير الإرادي بأنه الجميل , والشر الإرادي بأنه قبيح , والخير الإرادي يحدث بواسطة القوى الناطقة النظرية، والتي يشعر الإنسان من خلالها بالسعادة .[8]فهنالك ترابط بين فكرة الجمال والخير والفضيلة عند الفارابي , مسايراً في ذلك سقراط وأفلاطون يقول : " إن الذي له فضيلة يستنبط بها الأنفع والأجمل , لأجل غاية ما فضالة , هي خير " .[9]لقد طبق الفارابي نظريته الجمالية على الفن عموماً وعلى فن الموسيقى بشكل خاص, ودعا إلى أن تكون غاية الفن أخلاقية , ومن خلال هذا الربط بين الجمال والأخلاق , وقسم الجميل إلى صنفين ؛

1) صنف هو علم فقط 2) وصنف علم وعمل , وهذا هو تقسيم أخلاقي للجميل , يقول أن : " الصنف الذي يعلم ويفعل مثل علمنا أن بر الوالدين حسن , وأن الخيانة قبيحة , وأن العدل جميل "[10]

وقد قسّم الفلسفة مبيناً علاقتها بالأشياء الجملية على صنفين :

[1] – النظري الذي يحصل من خلال معرفة الموجودات , التي ليس للإنسان القدرة على فعلها .

[2] – الفلسفة العملية التي يحصل بها معرفة الأشياء, وبذلك يضع الفلسفة في المقام الأول التي يمكن بواسطتها أن تصير الأشياء الجميلة متينة, حيث إن الفلسفة تطلب الجمال , يقول : " لما كانت السعادات إنما تنالها متى كانت لنا الأشياء , الجميلة إنما تصير متينة بصناعة الفلسفة , فلازم ضرورة أن تكون الفلسفة هي التي بها ننال السعادة " .[11]

بذلك تتحقق رؤية الفارابي الجمالية لهذا الكون العريض , وكذلك رؤيته الجمالية لمدينته الفاضلة حسب ما أراد لها أن تكون أسوة بجمهورية أفلاطون التي عدها وكأنها لوحة فنية متكاملة الأجزاء، فقد طبق الفارابي مبادئه في النظام والترتيب على الفن , وعلى الموسيقى على وجه الخصوص . وتحدث عن الكمال الفني , حيث ثمة درجتين اثنتين من الكمال في الشعر، الأولى مرتبطة بالمحاكاة والتخييل والثانية بعلاقة الشعر بالموسيقا من حيث هي فن , فذهب إلى أن الشعر لن يصل إلى كماله الأخير إلا بالموسيقا .[12]

الجليل من خلال الرؤية الفارابية

* يعيد الدارسون هذا المفهوم : " إلى لونجينوس , الذي قد يكون أول من أدخل هذا المصطلح إلى الفكر الجمالي ... ولونجينوس نفسه لا يدعي أنه مكتشفه الأول ... ويعدد في بحثه عن الجليل جملة مصادر " .[13]

ورغم إثارة لونجينوس لمسألة الجلال فلسفياً , إلا أن هذا لم يدفع بالتفكير الفلسفي إلى الاهتمام اللائق بمفهوم الجليل , حيث بقي الاهتمام بهذا المفهوم هامشياً بالمقارنة مع الجمال " والحق أن هذا المفهوم لم يتصدر الاهتمام إلا في الفكر العربي الإسلامي " .[14]وتأخر في العالم الأوربي إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي .

إن المعالجة العربية الإسلامية لمفهوم الجليل من المعالجات الجمالية الأولى, وارتبطت هذه المعالجة بالذات والأفعال الإلهية,و يذهب الفارابي إلى أن العظمة والجلالة والمجد في الشيء يكون هذا منحصراً بكماله ..

والكامل (الأول) الذي هو واجب الوجود , كماله باني لكل كمال, فلذلك إن عظمته (الأول – الكامل) وجلاله هو باني لكل ذي عظمة ومجد . [15]

وهذا الفهم الذي قدّمه الفارابي للجليل أصبح مرتكزاً أولياً لمن بحث في الجليل بعده، وتكاد تنحصر دراساتهم حول شرح ما قدمه الفارابي(الكمال هو الجوهر في الجلال)، فلا وجود للجلال البتة في غياب الكمال أو في كل ما هو ناقص.

ومن أهم سمات الجليل العظمة والمجد، وكل مادون ذلك من ضآلة لايمكن أن يتسم بالجلال، والضآلة لا تعني النقص ولا تعني عدم الكمال في الوقت نفسه , لذلك ليس كل كامل جليلاً , بل عليه (الكامل) الاقتران بالعظمة والمجد حتى يدخل في إطار الجلال.

لقد أقّر الفارابي أن الجلال الإلهي يعلو فوق كل جلال , فهو الكمال المطلق على كل كمال، هو كمال بالجوهر، و ماسواه كمال بالعرض , وهذا يعني أن الكمال الإلهي (الكامل في الجوهر) فوق كل كمال, وهو الجلال الحقيقي الأوحد , وهذا الجلال لا يمكن الوصول إليه أو استيعابه أو التشبه به, لقد وضع الفارابي الملامح والخطوط العامة لمفهوم الجليل, وذلك بالانطلاق من أن الجلال هو الكمال في الجوهر , والعظمة والمجد من سمات ذلك الكمال, والكمال المتصف بالعظمة والمجد هو الجليل بشكل بدهي من بدهيات الفكر العربي الإسلامي.[16]

التذوق الجمالي

التذوق الجمالي سلوك منعكس أو فعل صادر عن النفس الإنسانية ، تحدث بوجود ذات مدركة وموضوع مدرك – وتعتمد على الأثر الذي يحدثه الموضوع الجمالي في نفوسنا, من خلال التأثير في المشاعر والأحاسيس, بحيث تصدر لذة هي اللذة الجمالية . وقد وقف الفارابي عند هذه اللذة مشيراً بأن للبدن والنفس ملذات ومؤذيات، فالملذات هي الموافقة الملائمة, والمؤذيات هي المخالفات وبالاستناد على ذلك فإن اللذة هي إدراك ما هو ملائم، والأذى على العكس من ذلك تماماً (المنافر) [17]

هناك تقويمات جمالية عند الإنسان مكتسبة من العيش في الواقع ومن الثقافة الاجتماعية , وآلية التذوق تقترب من آلية الإبداع الجمالي [18] فهناك موضوع مدرك يقابله ذات مدركة , والموضوعات المدركة مختلفة بين مسموعات ومرئيات ...

الخ و ومن خلال اللذة يتم الإدراك وبحصول الإدراك تنتج اللذة, ذلك أن سائر المحسوسات والمدركات المسموعة كالألحان تفيد اللذة, يقول الفارابي : "المحسوسات الطبيعية هي التي إذا أدركها الحس حصل له عنها كماله الخاص به وتبعته لذة , وغير الطبيعية هي التي إذا أحست حصل عنها للحس نقيضه وتبعها أذى " .[19]لقد طبق الفارابي هذا المقياس على الموسيقى , يقول : " من أصناف الألحان ما يكسب النفس لذة وأنف المسموع ويفيها أيضاً راحة من غير أن يكون له صنع في النفس أكثر من ذلك " .[20] وهناك ثلاث قوى تدرك المحسوسات بالحواس الخمس، وبها ندرك الملذ والمؤذي, والقوة الناطقة هي التي يميز بها بين الجميل والقبيح، أما القوة المتخيلة فهي تقوم على حفظ رسوم المحسوسات بعد غيبتها من الحس, وهي الحاسة المختصة في إدراك اللذيذ والمؤذي من الأفعال والأخلاق, [21] فالقوة المتخيلة من أهم القوى التي لها القدرة على إدراك الأشياء الملذة الجملية، والأشياء المؤذية القبيحة, وهذه القوة هي التي تزود الفنان بالخيال اللازم في التعبير، وعملية التذوق عند الفارابي نسبية لا تخضع لأي قياس فكل فرد يتناول لذته الجمالية حيث يجدها, فليس هناك لذة واحدة, وقال بمبدأ اللذة الحسية في عملية التذوق الجمالي, لكنها ليست الغاية القصوى للفن, فغاية الفن ليس اللذة فحسب وإن كانت ضرورية , فإن غاية الفن في النهاية هي غاية أخلاقية, فهو يصف الفنون التي غاياتها إحداث اللذة فقط بأنها ليس لها نفع, لقد أكد أن كثيراً من المحسوسات المركبة مثل التماثيل والتزاويق منها يفيد النفس مع اللذة شيئاً آخر من تخيلات وانفعالات وهي الموسيقا أو الألحان الكاملة، فالصنف الأول لا غنى فيه, أما الصنف الثاني فهو النافع , وهو تابع للأقاويل الشعرية. [22]

لقد دعا الفارابي لتسخير الفن لخدمة الحياة، وإرشاد الناس إلى الفضائل والأخلاق دون الانغماس بالشهوات, وقد قسم الأقاويل الشعرية إلى قسمين :

[1] – جد: وأمور الجد هي الأمور النافعة في الإنسانية , التي يجتهد الإنسان للحصول عليها .

[2] – وأخرى من شأنها أن تستعمل في أصناف اللعب , أي التي يستعملها الإنسان للراحات.

كما أكد أن السعادة الحقيقة هي في الحياة الأخرى وليست في الحياة الماثلة, فنحن ننال السعادة القصوى حينما نتجرد من المادة وتصبح جواهرنا نقية, ويصبح تصورنا عن الخالق بصورة دقيقة تقربنا إليه عقلاً بالفعل , وإذا فارقنا المادة يصير المعقول منه في أذهاننا أكمل ما يكون .[23]

وبدعوة الفارابي إلى تأمل الجمال الكامل تظهر نزعته الصوفية، وقد عقد مقارنة بين الجمال الإنساني والجمال الإلهي، فجمالنا بأعراضنا لا بذواتنا , والإدراك يحصل بصورة أتقن وأتم عندما يدرك الأجمل والأبهى والأزين , فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الأجمل في النهاية, فإدراكه لذاته الإدراك الأتقن في الغاية, أما إدراكنا نحن فيتم بوسيلة هي إما بإحساس أو تخيل أو بعلم عقلي, وفي العشق, المعشوق منا هو الفضيلة والجمال, أما العاشق منا فهو ليس الفضيلة والجمال,أما هو فالعاشق هو بعينه المعشوق, والمحب هو المحبوب , فهو المحبوب أولاً , والمحب ثانياً فيما يعلقه من ذاته، فهو المحبوب الأول والمعشوق الأول .[24] وعليه فإن عملية إدراك الجمال الإلهي وتذوقه تحصل عندما تتجرد النفس من المادة وتصبح شبيهة بالأشياء المفارقة, وبوصول القوة المتخيلة إلى أرقى الدرجات, تماماً كما يحدث في المعراج الصوفي حيث كمال الروح باتجاه الكامل الجميل المطلق.

لقد حدد الفارابي إنسانه الكامل بعدة سمات منها ما هو عقلي وما هواجتماعي ومنها ما هو فردي , فمن الجانب الأول (العقلي) الاتصال بالعقل الفعال يشكل جوهراً لا غنى عنه في تحديد الإنسان الكامل, فإذا تم الاتصال بالمخيلة فإن هذا الإنسان يكون نبياً,وإذا تم بالعقل المنفعل " فإنه يكون فيلسوفاً حكيماً – وفي الحالتين فإنه في أعلى المراتب الإنسانية, وفي أعلى درجات السعادة " [25]

نظرية الفن عند الفارابي

لقد تناول الفارابي في نظريته الجمالية الفلسفية معظم ضروب الفن، أضفى من خلال تحليله العميق طابعاً فلسفياً جمالياً ميّزه عن باقي الفلاسفة ، إذا أولى اهتمامه بالفن تحليلاً وبحثاً عن نقاط الجمال فيهما، فقد وقف عند مسألة الفن ولا سيما الموسيقا والشعر والكمال فيهما .

فأضفى بتأملاته على الفن آراء جمالية مترابطة من حيث البنية الفعلية والحسية، وبدا من خلال دراسته أنه واسع الاطلاع على الثقافة اليونانية وسنختار الوقوف عند الشعر والموسيقا .

الشعر

لقد طبق الفارابي نظريته الجمالية على الشعر, فالأقاويل الشعرية عنده هي التي يقال أنها خيرات أو شرور , فالغاية هي الحث على الأخلاق والفضائل , وبذلك يكون نافعاً، وثمة درجتيين من الكمال في الشعر – ترتبط الأولى بالمحاكاة والتخييل والثانية بعلاقة الشعر بالموسيقا, وغاية الشعر تكرّس الفضائل المؤدية إلى السعادة، وهذا التأثير لابد أن يربط الشعر بالموسيقا ليتم الاكتمال.[26]

وبذلك يقسم الشعر إلى قسمين الأول يستعمل في الأمور التي هي جد , وآخر يستعمل في أصناف اللعب, فالشعر هو اللعب الحر" في الشعر تظهر القدرة على خلق أفكار جميلة بكل قوتها ...لعب الشاعر يعطي العقل غذاء , ويبعث الحياة بالخيال " .[27]والجاد منه هو النافع للإنسانية، وعندما تكون المحاكاة في الشعر أقرب في المشابهة يكون الكمال الفني في الشعر أوضح , لذلك على الصور أن تمثل المحاكى تمثيلاً قريباً من دون المطابقة الحرفية, فالمحاكاة عند الفارابي مرتبطة بعلاقة القول الشعري بالمحاكى ، على حين أن التخييل يرتبط بفعل القول الشعري وأثره في المتلقي, ويحدد الفارابي موضوعات المحاكاة والتخييل، فهنالك ستة أصناف، ثلاثة محمودة وثلاثة مذمومة , فالثلاثة المحمودة أحدها : صلاح القوة الناطقة , تسديد الأفعال نحو السعادة – وتخييل الأمور الإلهية والخيرات ... والغرض من كل ذلك هو اعتدال النفس وإبعادها عن الإفراط, فغاية الشعر إلهية ذات وسيلة أخلاقية، فالمحاكاة والتخييل أداتان للوصول إلى الكمال الفني لاستيعاب الكمالات الإلهية والأخلاقية والنفسية, أما الوزن والقافية يخصان الشعر لا الكمال فيه, لا يدخلان في أساس الكمال الفني , لكن الدرجة النهائية لكمال الشعر هي علاقته بالموسيقا [28] وباقتران الألحان بالأقاويل الشعرية يصبح الإصغاء لا ملل فيه, لأن الإنسان يطلب الجمال ولا يمل منه، وللشعر أهمية ومهمة جمالية في حياة الناس، يقول : " ولأهمية الشعر في حياة الناس , وفي تأثيره في النفس وشحذ الهمم وفي استنهاض الإنسان لفعل ما , باستفزازه إليه واستدراجه نحوه , صارت هذه الأقاويل الشعرية دون غيرها تجمل وتزين "[29]

وقد أرجع الفارابي الشعر في الإنسان إلى فطرة تكوينية, وبذلك يتفاضل الناس في جودة الأداء، فمنهم من يمتلك القدرة على التمثيل والتشبيه وهي طبيعة متهيئة , ولكنهم غير عارفين بصناعة الشعر على ما ينبغي , ومنهم من يكونون عارفين بصناعة الشعر حق المعرفة ولا يخفى عليهم خاصة من خواصها ولا قانون من قوانينها , ويجيدون التمثلات والتشبيهات بالصناعة , وهؤلاء يستحقون اسم الشعراء، ومنهم من يقلد السابقين من غير أن تكن لهم طباع شعرية ولا وقوف على قوانين الصناعة , ولقد وجه الفارابي نقداً لأشعار العرب والأمم السابقة عليه , لأنهم خلطوا بين أوزان أشعارهم وأحوالهم , ولم يرتبوا لكل نوع من المعاني الشعرية وزناً معلوماً , واستثنى من ذلك اليونانيين الذين جعلوا لكل نوع من الشعر نوعاً من أنواع الوزن , فأوزان المدائح عندهم غير أوزان الأهاجي والثانية غير أوزان المضحكات وهكذا ... , [30].وقد أشار الفارابي إلى الاختلاف بين الشعر وبقية الفنون الأخرى من ناحية الصناعة.

الموسيقا

لقد أطلق الفارابي تسمية صناعة على الموسيقا وعلى غيرها من الفنون الجميلة , كصناعة الرقص وصناعة الكتابة، وهذه تسمية معروفة بين الفلاسفة والمفكرين المسلمين , فأبو هلال العسكري يسمى كتابه في النثر والشعر (الصناعتين) وكذلك الكندي استخدم هذا المصطلح –كمؤلف في الموسيقا الذي أطلق عليه (صناعة التأليف) فالصناعة مصطلح يعم كل الفنون.

عرف الفارابي الموسيقا بقوله : "هي الصناعة التي تشمل على الألحان وما بها تلتئم وما بها تصير أكمل وأجود "[31] وقسم الموسيقا إلى قسمين :

الأول : صناعة الموسيقا العملية التي تشتمل على الألحان التي تمت صياغتها محسوسة للسامعين، ومنها ما تشمل الألحان التي تصوغها وتركبها فقط , أما القسم الآخر فهو صناعة الموسيقا النظرية وهي الهيأة العالمة بالألحان ولواحقها وتصورات المبادئ الأولى والتي يحصل عنها هذا العلم حاصلة في النفس , وهذه الصناعة تشابه بعض العلوم الأخرى في أشياء كثيرة , فهي تشابه علم اللغة وصناعة اللغة وصناعة الشعر , وهذه جزء من صناعة المنطق، وبعض مبادئها يؤخذ من العلوم المعروفة، فمنها ما يؤخذ من العلم الطبيعي وبعضها من صناعة الهندسة, وبعضها من صناعة الموسيقى العملية .[32]

خصص الفارابي معظم بحوثه الموسيقية على القسم العملي من الموسيقا , وفضل الموسيقا على جميع أنواع الفنون الأخربكالرقص والتماثيل ... التي وجدت لإثارة اللذة فقط من دون أن تحدث شيئاً آخر في النفس, أما الموسيقا , بالإضافة إلى إحداثها لذة فلها تأثير كبير في انفعالات النفس مثل الرضا والسخط والرحمة والخوف ... وكذلك قدرتها على حصول تخيل النفس لأشياء تستعمل فيها الأقاويل الشعرية التي تخيل فيها الأخلاق والأفعال المحمودة , ولذلك عدّ الفارابي الألحان الجميلة هي التي تحقق الغايات الثلاث : اللذة – وفيما يوقع في النفس من تخيلات – وما يكسب الإنسان انفعالات النفس وشيمها، وربط الفارابي بين الجمال والأخلاق , والفن والأخلاق استناداً إلى أن جمال الألحان الموسيقية يتوقف على مدى التأثير و تسخيرها لعمل الخير والأعمال الفاضلة , حيث الأخلاق الجملية والسعادة, والألحان حسب تأثيرها في النفس تتوزع بين ألحان تنسب إلى قوة النفس مثل العداوة والقساوة ... ومنها ما ينسب إلى ضعف النفس مثل الخوف والرحمة ..ومنها ما ينسب إلى المخلوط من هذين وهو المتوسط أو الألحان الاستقرارية التي تكسب النفس هدوءاً واستقراراً, وأكد أن الإنسان يمتلك القدرة على التمييز بين الجيد والرديء والمتلائم وغير المتلائم من الألحان , وذلك من خلال ترويض الأذن

على سماع أصناف الألحان ، وهذه القدرة فطرية أو بالعادة وقليل من الناس تنعدم هذه القدرة لديهم .[33]فالألحان التامة بمثابة الأغذية الطبيعية , وما ليس طبيعياً مثل الأصوات الهائلة والحادة التي ليس في قوة الإنسان احتمالها , وبعض الألحان الطبيعية تستخدم في الطب لعلاج بعض الأمراض النفسية, وهي بمنزلة الأدوية في الأبدان , وهذا موجود عند الفيثاغورثيين الذين أدخلوا الموسيقا في علاج بعض الأمراض النفسية , وبعض الألحان تستخدم بمنزلة السموم , مثل الأصوات المهلكة أو المصممة , وهذه تستخدم في الحروب لإحداث الرعب في صفوف الأعداء .[34]

وذكر الفارابي أنواع الفنون التي تدخل ضمن الموسيقا، وهي صناعة الدفوف والطبول والصنوج وصناعة الرقص , وغايتها جميعًا إحداث اللذة , وتصدر الغناء عند الفارابي في المرتبة الأولى في الكمال؛ حيث تتم فيه أكمل الألحان , وسماه بنغم الحلوق, وتأتي بعدها أنواع الفنون الأخرى، وأرجع نشأة الألحان الغنائية في الإنسان إلى الغريزة الإنسانية , منها الهيأة الشعرية المركوزة في الإنسان منذ تكوينه , ومنها الفطرة الحيوانية التي يحدث بها عند حال من أحوالها اللذيذة والمؤذية، ومنها محبة الإنسان الراحة عقب التعب, وانتقد الفارابي الفيثاغورثيين في اعتقادهم بأن دورة الأفلاك والكواكب نغمات تأليفية فقد تبين في العلم الطبيعي أن حركة الأفلاك والكواكب لا يمكن أن تحدث أصواتاً .[35]

وكما أن للشعر كمالين عند الفارابي , فإن للموسيقا أيضاً كمالين ,أول داخلي يرتبط باجتماع الألحان الطبيعية , وثان يرتبط بعلاقة الموسيقا بالشعر , فالألحان الكاملة تابعة أولاً للأقاويل الشعرية .[36]وصنّف الألحان الطبيعية إلى ثلاثة أنواع : (الملذة – الانفعالية – المخيلة) والألحان الطبيعية للإنسان ما فعلت في الإنسان أحد هذه , وما اجتمعت فيه هذه الثلاثة فهو أكمل وأنفع, فاللذة والانفعال والتخيل ثلاثة شروط , ولابد منها للكمال الفني في الموسيقا .[37]وينبغي أن يكون بين النغمات والأصوات نظام , إذ يخل التناقض بالكمال الفني في الموسيقا, ولا بد من التناسب والتنوع فيما بين الأصوات " فالنظام الموسيقي الكامل يقوم على التناسب والتنوع والموافقة، وكل ذلك ينطوي تحت مفهوم الاعتدال , لأن الإفراط فيها غير لذيذ أو مكروه " .[38]كما يجب أن يتضمن هذا النظام المحاكاة؛ فبها تكتمل العملية الفنية في ضروب الفن كافة.لقد امتلك الفارابي حساً جمالياً عالياً، واتضح تأثير الفكر الديني فيه، وخاصة القرآن الكريم الذي أبدى بإعجازه كل مظاهر الجمال الإلهي بما فيه من عظمة ترتيب وانسجام، وهذا ما انعكس في فكر الفارابي وغيره من الفلاسفة العرب المسلمين، فبحثوا في نظام هذا العالم، وردوا الوجود كله إلى واجب الوجود (رد الكثرة إلى مبدأ واحد).لقد نبعت رؤية الفارابي من أصول الدين، معتمداً على العقل والعقلانية المنطقية لإدراك الجمال، وربط بين الجمال والأخلاق، ونادى بتسخير ضروب الفن لخدمة الإنسان بشكل أخلاقي فاضل، بعيداً عن الملذات التي تُبعد الإنسان عن السعادة، واتضح تأثر الفارابي بأرسطو عندما تناول فكرة الكمال التي تعتبر منتهى ونهاية الجمال، هذه الصفة التي امتازت بها الذات الإلهية، التي تعتبر مصدر كل جمال وبهاء.وتبيّنت رؤية الفارابي الصوفية للوجود، وانعكست رؤيته الجمالية وتذوقه الجمالي من خلال فلسفته الجمالية في الفن.

الهوامش

(1) الأعلام , قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين . تأليف خير الدين الزركلي – الجزء السابع – دار العلم للملايين – بيروت , لبنان – الطبعة الرابعة شعرة 1999 م انظر للاستزادة ص 20 .

(2) التوجيه الأدبي , تأليف طه حسين بك – أحمد أمين بك – د . عبد الوهاب عزام , د . محمد عوض محمد .ص 76 .

(3) آراء أهل المدينة الفاضلة , الفارابي , مطبعة التقدم – القاهرة – ط 2 –1907 م ص 20

(4) البنية الجمالية في الفكر العربي – الإسلامي د . سعد الدين كليب, منشورات وزارة الثقافة – دمشق 1997م ص27 وما بعد

(5) السابق ص 35 .

06) السباق ص 36 وما بعد .

(7) كتاب الموسيقى الكبير , الفارابي – تح غطاس عبد الملك خشبة – دار الكتاب العربي – القاهرة 1967 م ص 175

(8) السياسة المدنية – الفارابي , تح فوزي متري النجار – بيروت المطبعة الكاثوليكية – ط 1 1964 ص 73

(9) تحصيل السعادة , الفارابي , تح د . جعفر آل ياسين – بيروت ط2 1983 م ص71 .

(10) التنبيه على سبيل السعادة – الفارابي – تح د. جعفر آل ياسين – دار المناهل – بغداد الطبعة الأولى 1985 انظر ص 73 وما بعد .

(11) السابق ، انظر ص 76 ومابعد

(12) البنية الجمالية في الفكر العربي – الإسلامي انظر ص 119–120.

(13)محاضرات في علم الجمال – د . فؤاد المرعي – مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية – حلب 1425 هـ –2004 م ص63 .

(14) البنية الجمالية في الفكر العربي – الإسلامي ص 143 .

(15) آراء أهل المدينة الفاضلة , انظر لذلك ص20

(16) البنية الجمالية في الفكر العربي الإسلامي , انظر ص 145–146 .

(17) فصول منتزعة , الفارابي , تح فوزي النجار , بيروت 1968 م , انظر ص14

(18) فلسفة الجمال ومسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي – د . حسين الصديق– دار القلم العربي– حلب الطبعة الأولى – 2003 م ص 135 .

(19) الموسيقى الكبير ص 64 .

(20) السابق ص 62 .

(21) السياسة المدنية ص 32 وما بعد .

(22) الموسيقى الكبير

(23) أراء أهل المدينة الفاضلة , انظر ص31 .

(24) السابق ص51 .

(25) البنية الجمالية في الفكر العربي الإسلامي ص 215 .

(26) السابق ص120 .

(27) الفن والجمال , د . علي شلق , المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع , بيروت – لبنان – ط 1، 1982 ص 56 .

(28) البنية الجمالية في الفكر العربي الإسلامي ص 122 وما بعد .

(29) إحصاء العلوم , الفارابي , تح عثمان أمين – القاهرة , ط3 ، 1968 م ص 84-85 .

(30) مقالة في قوانين صناعة الشعر في كتاب فن الشعر لأرسطو , الفارابي تر عبد الرحمن بدوي , مكتبة النهضة المصرية – القاهرة 1953م.

(31) الموسيقى الكبير , ص49 .

(32) السابق ص 49 وما بعد .

(33) السابق ص 49-50 .

(34) السابق ص (75-76) .

(35) السابق ، انظر ص78 إلى 89)

(36) البنية الجمالية في الفكر العربي – الإسلامي ص 123 .

(37) السابق ص 123 .

(38) السابق ص124 .